كانت رموزه الاساسية تتمثل بالحكومة وبالسلطة العسكرية تضاف اليهما احكام الطوارىء . ويقابل هذه الاشياء كلها مصادرة الاملاك ، والقرى . والشعور السائد هو ان هذا القهر لا مفر منه . فليس من الممكن اخضاع الحكومة ، ولا الحد من المصادرة ، ولا بعث القرى وتحويلها الى بؤر للرد . ان هذه الافكار لا ترد حتى الى ذهن الشباب العربي « المتطرف » من جماعة الارض . ولكنهم ، على العكس من ذلك ، واعون تماما للتناقضات المنطقية التي تقع فيها السلطات الاسرائيلية . ان هذه التناقضات المنسوبة للمعتدين تجعل من القيود اشياء لا مبرر لها قطعا ، ان لم نقل انها غير عقلانية او على اقل تقدير ميكيافيلية . ويمكننا ان نذكر على سبيل المثال ان السلطة العسكرية التي خلقت من اجل تأمين الامن ومن اجل ممارسة الشر كذلك ، ينتهي بها الامر الى خلق اللاطمأنينة . كما ان القمع الذي يستهدف اخضاع العرب في اسرائيل يحثهم ، في نفس الوقت ، على الثورة . كذلك ، فان ازالة قوانين الطوارىء البشعة لم تكن سارية المفعول بالنسبة للعرب المقيمين في اسرائيل .

مع هذا فقد تولدت عناصر الرد الفلسطيني من الشعور بالقهر . وكان هذا الرد يتطلع على المدى القصير الى الوقوف في وجه آلة القمع ، والمطالبة بحقوق العرب في اسرائيل ، مهما كان الثمن ، حتى لو اضطر الى اللجوء للمقاومة (السلبية كما يبدو) . كل ذلك باسم النصوص الدستورية للدولة وباسم ضمانات الامم المتحدة . اما على المدى الطويل بعد ذلك ، فان الرد الفلسطيني يرتكز على الاوتوبيا القائلة بالتقسيم وبالتعاون العربي — اليهودي من اجل اقامة امة عربية واحدة واشتراكية . ان هذه الاوتوبيا تبدو مع ذلك ، وكأنها اكثر واقعية من مرحلة المقاومة . ذلك ان فرضية التعايش داخل اسرائيل فرضية منبوذة . كما ان فرضية ازالة دولة اسرائيل بشكلها الراهن لم يجر حتى طرحها . تبقى هناك فكرة الاقتسام بين العرب واليهود الذي يؤدي فيما بعد الى تعاون على مستوى المنطقة بأسرها تحت راية الاشتراكية العربية الموحدة ...

ان هذا المشروع يشتمل على تناقضات كما نذكر ، ولكنها جميعها من النوع «الجدلي» . فالامم المتحدة تحمي قانونيا العرب في اسرائيل ضد مصادرة املاكهم ولكنها ، رغم كل نداءاتهم ، لا تتدخل لمصلحتهم . ان هذا التراخي من جانب الامم المتحدة لا يؤدي الا الى زيادة فشل مرحلة المقاومة والمطالبة . اما باقي التناقضات فانها تتصل بصلب المشروع ذاته : التوافق (الاوتوبي) وعدم التوافق (الراهن) بين الامة العربية والدولة الاسرائيلية — التقسيم والتعاون في آن واحد — التقسيم ومع هذا اللاشوفينية — اللاشوفينية ومع ذلك القومية العربية (فقط) — التقسيم (الاوتوبي) وفي نهاية الامر المطالبة (الراهنة) بالارض العربية . ان هذه التناقضات تشير الى الاتجاه الذي يسير فيه تطور العلاقات بين الخصمين وصولا حتى النهاية الاوتوبية « الحقيقية » .

انه من الصعوبة بمكان التحدث عن ايديولوجيا سياسية يعني عن نظام للقيم وعن نظرة شاملة للعالم السياسي على كافة مستوياته . من الافضل أن نتحدث عن « اوتوبيا » سياسية يعني عن مشروع سياسي صادق وضارب الجذور الى حد كبير في « الاسطورة الفلسطينية » التي يحتفل بها الشعر العربي في اسرائيل . ان اوتوبيا الارض ليست مستوحاة في الواقع من مثالية او ايديولوجية « فوقية » ، ولكنها مستوحاة من التجربة القاسية امام شبكة من القيود . ان الموت هو مؤكد . ومع ذلك فان بذورا « اوتوبية » للبعث تنمو معه وتتخذ لنفسها شكلا . ويرد الى خاطرنا هنا شعر محمود درويش :

« الموت ، الحياة ، الطريق واحدة »

من المؤكد ان التقرير الذي رفعته «الارض» يبدو اكثر تواضعا من القصيدة في مشروعه، واكثر منها بكثير شكوى من الوضع الراهن . لكن الذي أمامنا هو تقرير موجه الى الرأي العام العالمي وليس الى الشعب العربي في اسرائيل . انه كذلك دفتر من الشكاوي